ملحق

نبذة في تاريخ دير قزحيا ومطبعته[1]

عثرنا بين اوراقنا على نبذة خطية للطيب الذكر الاب نعمة الله القدّوم الكفري (بلاد جبيل) لمشهور بالعلم والفضيلة ، كتبها عن دير مار انطونيوس قزحيا ومطبعته سنة ١٨٩٩ ، ولما كانت لا تخلو من الفائدة رأينا ان نلحقها بهذا المقال ، وهي بنصّها الواحد :

اقول انا الاب نعمة الله الكفري : ان عمار دير قزحيا قد ازداد تدريجاً كما ازدادت ايضاً أرزاقه تدريجاً . اولاً انه في اواخر الجيل الثامن عشر أحضرت الرهبانيّة البلدية اللبنانية المارونية مطبعة من رومية مع آبائها وآمائها لاربعة اشكال من الاحرف السريانية الجميلة وذلك عن يد الاب ساروفيم الشوشاني البيروتي الذي توفي سنة ١٨١٤ . فهذا كان أرسل الى رومية لطبع « الشبيّة » بالحرف الكرشوني بنفقة الرهبانية المذكورة ، وتمّ طبعها سنة ١٧٨٢ تحت مناظرة الاب سمعان خضير معلم اللسان العبراني في المدرسة الرومانية بزمان البابا بيوس السادس ورئاسة الاب عمانوئيل الرشماوي على الرهبانية . وبرجوع الاب ساروفيم من رومية أحضر معه المطبعة المذكورة فوُضعت اولاً في دير مار موسى الحبشي (بلاد المتن) وكان حينئذٍ رئيساً عاماً على هذه الرهبانية الاب مرقس (الحدّاد) الكفاعي (عين كفاع احدى قرى بلاد جبيل) وطبع فيها بعض كتب. منها خدمة القداس سنة ١٧٨٩ ، ثمّ كتاب [illegible] الاقنى ، ثم الرسائل ، ثمّ الشحيمة الكاملة وكلها بالطبع الأسود دون الأحمر . وانا رأيت منها (من مطبوعاتها) من أمدٍ طويل خدمة وشحيمة بالحرف الرفيع . ثمّ نُقلت هذه المطبعة الى دير قزحيا نحو سنة ١٨١٥ ، وكان ذلك بزمان رئاسة الاب اغناطيوس بليل العامة على الرهبانية ، فبُني لها شرقي الدير محلّ منفصل عنه قليلاً وهو عبارة عن قبو عقد كاف لادارتها ولوازمها ، وفوقهُ محلّ للمطبوعات وتجليدها ، وذلك برئاسة الاب ارسانيوس النيحاوي على الدير من سنة ١٨٢٠

١) للاب نعمة الله الكفري

الى سنة ١٨٢٣ . وكان البنّاء الاب عبد الله متى الاهمجي الشهير وقتئذ بتانة البناء ، وبزمان رئاسة الاب النيحاوي المذكور أقيم المشى الشرقي قبلةً وهو يلقب باسمه لحد الآن (مشى النيحاوي) وان كان اتمام بنائه بزمان خليفته الاب مرقس الشنتيري . وكان البناء الاخ يوسف المعادي .

وكان دولاب هذه المطبعة خشباً وكانت حروفها تحبر بطبشات من جلد ثمّ بدل دولابها بدولاب حديد صغير . ومن التقليد انهُ طبع بهـا المزامير بالحرف الكرشوني وقد رآه وقرأ به الاب جبرائيل السبعلي . وعن لسان المرحوم الاب يوسف الحصروني الذي توفي سنة ١٨٩٦ بعمر نحو ثمانين سنة انه رأى هذا المزامير[1] . ثمّ تغيّرت هذه المطبعة بالمطبعة الحالية التي اشتراها المرحوم الاب دانيال العَلَم الحدثي المعروف « بقديس قرطبا » برئاسته على الدير سنة ١٨٧١ ، من المرحوم رومانوس يمين الاهدني . وليس من ذكر للمطبعة في دير قزحيا قبل التاريخ المقدم ذكره .

وأمّا الكتب التي طُبعت في هذه المطبعة في دير قزحيّا المذكور لحد الآن اي سنة ١٨٩٩[2] ، فقد تقدّمت لائحة بها الى مجلة المشرق[3] .

وفي سنة ١٨٤٢ بنى الاخ عبدالله الخيّاز ، الذي تعلم صنعة البنـاء عند الاب عبدالله الاهمجي المقدم ذكره ، جسر طاحون نهر ابي علي خاصة دير قزحيا . وكان عمار هذا الجسر بزمن رئاسة الاب اغناطيوس (سركيس) البيروتي على هذا الدير .

١) ان دير قزحيا شيد بين جدرانه ثلاث مطابع : المطبعة الاولى المطبوع فيها كتاب المزامير بالحرف السرياني الكرشوني سنة ١٦١٠ ولا يعرف شيء عن امرها وقد تكلم عن طبعة المزامير هذه ماسهاب الاب لويس شيخو في مقاله « تاريخ فن الطباعة في المشرق » (المشرق ٣ (١٩٠٠) : ٣٥٣ – ٣٥٧) ، والمطبعة الثانية هي التي اتى بها من رومة الاب ساروفيم حوقا الذي لقبه الفرنج بالشوشاني . والمطبعة الثالثة ، الحالية ، هي التي ابتاعها الاب دانيال من رومانوس يمين من اهدن . وكتاب المزامير لم يطبع الّا بمطبعة دير قزحيا الاولى .

٢) هي السنة التي كتب فيها الاب الكفري هذه النبذة التاريخية عن دير قزحيّا ومطبعته .

٣) راجعها في مقال « تاريخ فن الطباعة » في المحل المذكور .

وفي سنة ١٨٥١ بنى الاخ عبدالله المذكور جسر نهر رشمين في ملك دير قزحيا بزمن رئاسة الاب اندراوس القرطباوي على هذا الدير ، وكان رئيساً عاماً على الرهبانية الاب لورنسيوس (يمين) الشبابي .

وفي سنة ١٨٥٦ توفي الاب انطونيوس الصفابي الحبيس في محبسة مار يولا (في محلة غبتا) المتقدّم ذكرها . وكان ذا سيرة فاضلة جدًّا ومن جملة فضائله واخصها فضيلة الاماتة ، فان طعامه وهو في سنّ الشيخوخة لم يكن غالباً سوى الخبز المغموس بالزيت . والذين استحبسوا في هذه المحبسة كثيرون ، فكانوا يلبسون المسح الشعري ولا يأكلون العنب ، وكان طعامهم مرّة واحدة الساعة التاسعة من النهار . ومن عداد الذين كانوا قبله في هذه المحبسة الاب اليشاع المعادي ، فمن جملة فضائله الصلاة والتأمل مصلوب اليدين ، ينفرد احياناً عند مباشرتهما في مغارة صغيرة فوق المحبسة وعندما تخدر يداه يربطهما بمرسة (حبل) معلقة في سقف المغارة . وشهد بذلك رهبان كانوا يرقبونه ، وقد دلّني بعضهم على تلك المغارة حين كنت مقيماً في هذا الدير وذلك في سنة ١٨٥٤[1] .

وفي سنة ١٨٥٥ ، أُقيم رئيساً على دير قزحيا الاب اغناطيوس شكري الديواني وشرع بعمار الدير لجهة الغرب قبالةَ حذاء عمار الرئيس السابق الاب ارسانيوس الذي مرَّ ذكره ، فأقام أقنية طويلة مرتفعة وعلى ظهرها صالونات وقلالي ومشى لجهة النهر بقناطر مرتفعة بعد هدمه العمار القديم الحقير الذي كان محاشرًا باب الكنيسة وهو المشى المعروف حتى الآن «بمشى شكري» . وكانت نهاية هذا العمار سنة ١٨٥٧ ، وبلغ كلفه مع تبليطه ومنجورة مائة وستين الف غرش . وكان رئيساً عامًّا على الرهبانية الاب عمانوئيل (سلامه) المتيني .

وفي سنة ١٨٦٤ أُقيم الاب بطرس بجدرفل[2] رئيساً على هذا الدير . قد

---

١) توفي الاب اليشاع المعادي احد حبساء محبسة دير قزحيا وله من العمر سبعون سنة في ٩ تموز سنة ١٨١٩ ، برئاسة الاب برنردوس الغزيري على دير قزحيا ، وقد مكث في هذه المحبسة ثلاثين سنة . طالع تاريخ محبسة دير قزحيا ومن سكنها من الرهبان الحبساء ، كتاب « كشف الغطاء عن محابس لبنان والحبساء » للاب ليباوس داغر الشدودي ، ص ٥٠ — ٦٣ ، بيروت مطبعة الاجتهاد سنة ١٩٢٣ ، ١٦٠ صفحة .

٢) اليك ما جاء عن وفاته في روزنامة دير مار قبريانوس كفيفان بحرفه الواحد :

الاب نعمة الله الكفري

١٨٢٦ – ١٩٠٨

تلقّى بعض العلوم بمدرسة الآباء اليسوعيين في غزير . فهذا شرع بتكبير الكنيسة وتوسيعها طولاً وعرضاً نقرًا في الصخر ، وكانت مغارة ذات جدار واحد لجهة القبلة فهدم هذا الجدار وأقامهُ جديدًا بالحجر الساقي المنحوت والمجلو الذي جلبه من مقلع واقع بين اهدن وعربة قزحيًا . أمّا الابواب والشبابيك فقد استحضر حجارة نحيتها من جبل حصرون ، فأصبحت بذلك كنيسة كبيرة بديعة ، وان ثلثي سقفها من اصل المغارة والثلث الآخر منها فهو معقود بالحجارة تحت جزء المغارة المرتفع عن باقيها . ثم عمل لها منجورًا فاخرًا وبلّطها ببلاط الرخام بيد حجّارين حليين وعقد لهـا اربعة مذابح لجهة الشرق (الصخر) المنقور ، ومذبحًا على اسم السيدة العذراء في الحائط المذكور . ثم جلب لها غدّارة وجملة بدلات للقدّاس ، وكان أوصى لها بذبح وعواميد من رخام ودفع من ثمنها ثلاثة الاف غرش ولكنه لم يُشيّد إلّا بعد نهاية رئاسته وذلك بزمان رئاسة خلفه الاب روفائيل عوّاد الحصروني الذي استحضر لها جملة صور كبيرة وصغيرة . وقد بلغ ثمن تجديد عمار هذه الكنيسة مع لوازمها ١٢٩٦٩٦ ، مائة وتسعة وعشرين الفًا وستمائة وستة وتسعين قرشًا ، وكان حينئذٍ رئيساً عامًّا على الرهبانية الاب افرام جميع البشراوي .

واما محـلّ الزوّار (المعروف بحبسة الزوّار) فقد جدّده الاب مارون الصغابي برئاستهِ على هذا الدير بين سنة ١٨٨٦ وسنة ١٨٩٠ ، وعمّر فيه عمارًا جديدًا مؤلفًا من صالون للاستقبال واربع قلالي في وسطها ممشى وايوان للغرب مشيّدان على سطح قبو من عقد . وقد جهزها بعده بكل لوازمها الاب بطرس التولوي[1] (تولا ، الجبة) برئاسته على هذا الدير . وهذا الاب تلقى علومه

« قد انتقل الى رحمة الله الاب بطرس بجدرفل وهو سلح بكامل الاسرار المقدسة . والمرحوم كان من عواميد الرهبنة وله اتعاب وافرة في قيام حوانيت الرهبنة . وكان انتقاله في ٨ حزيران سنة ١٨٦٩ ، خلا الثلاثا الواقع في ٨ الشهر المذكور » .

١) ان الاب بطرس التولوي كان احد اعضاء الدائرة العلمية المارونية التي كان يرئسها المطران يوسف الدبس ، وقـد نقل من الفرنسية الى العربية هو والخوري بولس الرغبي – عضو الدائرة العلمية المارونية – الجزء الاول من « رسوم مواعظ دينية للخوري كارلوس مرتينوس الفرنسي مؤلف مكتبة الواعظين » وطبعاه تحت عنوان : « كتاب عنوان البيان وبستان الاذهان » بالمطبعة العمومية الكاثوليكية في بيروت سنة ١٨٨٤ ، في ٣٥٤ صفحة ،

بمدرسة الآباء اليسوعيين في غزير .

وأما املاك هذا الدير فهي وفيرة جداً في الساحل والجرد والقليل منها ولاسيما في زاوية طرابلس هو وقف من المحسنين من مشايخ آل الضاهر وغيرهم، والباقي هو مشترى وتجديد وشغل وكدّ الرهبان وبالاخص بدّة رئاسة الاب اغناطيوس بليبل العامة على الرهبانيّة التي استمرّ فيها سبعة مجامع متواصلة ، بعد نيابته نحو سنتين بعد وفاة الرئيس العام الاب عماثوئيل الجميّل ، وذلك من سنة ١٨١١ الى سنة ١٨٢٣ وقد نمت الرهبانيّة وازدهرت بزمن رئاسة الاب بليبل العامة روحياً وزمنياً ، من تشديد في حفظ القوانين والرسوم الرهبانيّة وتشييد اديار وتجديد أملاك . ومن الادلّة على سهره وحسن ادارته وضعهُ الاخ مارون البعداتي[1] وكيلاً على املاك الرئاسة العامّة في الزاوية واملاك دير قزحيا هناك .

وكان هذا الاخ صاحب تقوى وفطنة وغيرة كبيرة على نجاح الرهبانية ، فكسر الاراضي التي كان اكثرها حرشاً واشجاراً ، في رشعين وجوارها وغرس فيها كثيراً من التوت والزيتون بعضها لوظيفة الرئاسة العامّة وبعضها للدير المذكور الذي صار لهُ مداخيل وافرة منها ومن الطواحين التي عمّرها على نهر رشعين فضلاً عن مداخيل املاكهِ في الجرود وعن الاحسان من الزائرين الكثيرين لهذا الدير لاجل العجائب الكثيرة الحادثة بهِ بشفاعة القديس انطونيوس صاحب المقام ، من شفاء مرض وطرد الشياطين من المجانين وغير ذلك من فوائد يجنونها من زيارتهم ، وكل ذلك مشهور . ولاجل نجاح هذا الدير وعمرانه كثر عدد الرهبان الساكنين فيهِ فبلغ احياناً كثرة الى المئة راهباً .

٥

وفي سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٧٦ ، شقّت (فصلت) الرهبانية عن هذا الدير ثلاثة اديار في سواحل الزاوية تخفيفاً للرهبان عنهُ وتسهيلاً لشغل الاملاك

وعثرنا للاب التولوي في مدرسة مان على مسودة الجزء الثاني من هذا الكتاب ، من ترجمته وخطهِ ولكنها مخرومة في الاول والآخر . وهو الذي انتُدب للسفر الى نابولي فأتى منها بجهان الطيّب الذكر يوسف بك كرم البطل اللبناني ، الى لبنان .

[1] هو من عائلة مدلج الشرباتي من بعبدات . طالع « تاريخ بعبدات وأسرها » للخوري نعمة الله الملكي ص ٢٠٧ . مطابع وزوتكنراف نصار ، بيروت ، في ٣٠٢ صفحة .

التي لهُ هناك واتقانها . وقد فرزت الرهبانية لكلٍ من هذه الاديار قسماً من املاكه تكفي لمعاش رهبانه . وهذه الاديار هي اولا دير الجديدة ، شرقي قرية كفرزينا وهو على اسم القديس انطونيوس اب الرهبان. وثانياً دير عشاش، تعالي الزاوية فوق مدينة طرابلس وهو على اسم القديس جرجس. وهذان الديران تشيّدا بزمن رئاسة الاب عمانوئيل الشابي العامة على الرهبانيَّة ، وذلك سنة ١٨٤٩ ، وثالثاً دير بصرما وهو اسم سيّدة النجاة في كورة طرابلس تشيَّد سنة ١٨٧٦ وكان رئيساً عاماً على الرهبانيَّة الاب مرتينوس (سابا) الغوسطاوي . وقد بُنيَ هذا الدير بكامله بسعي واهتمام المرحوم الاب دانيال (العَلَم) الحدثي (حدث الجبّة) المدبّر يومئذٍ، وكان ذا سيرة فاضلة، وقد توفي بدير مار سركيس قرطبا ودُفن فيه ، وانهُ يصنع كرامات عديدة تدلُّ على قداستهِ ، ويزورهُ المرضى والمحتاجون ويستفيدون من زيارتهِ . هذا ما فُصل من املاك دير قزحيا في الساحل.

٥

وفي سنة ١٨٥٥ استُحضرت المطبعة بالعربيَّة لدير سيّدة طاميش (بلاد كسروان) ودفع دير قزحيا من اصل ثمنها خمسين الف غرش .

وأمَّا ما فُصل من املاك دير قزحيا في الجرود وأعطي لبعض اديار الرهبانيَّة فهو قليل بالنسبة الى ما فُصل من املاكهِ في السواحل . لمَّا اخذت الرهبانيَّة من المرحوم المطران بولس رزق مطران ابرشية طرابلس، دير راهبات مار سمعان العامودي القرن القائم فوق عربة قزحيا غربي قرية قيطو ، وفيهِ ست راهبات عابدات ، كان فقيرًا مديوناً بثمانية عشر الف قرش وفاها الاب افرام جحجع البشرّاوي الرئيس العام حينئذٍ اي في سنة ١٨٦٤ واشترى لهُ جملة ارزاق من دخل وظيفته وخصص به جملة ارزاق ايضاً من دير قزحيا وعمَّرهُ ديرًا كبيرًا. ومن أمدٍ بعيد فُصل قسم من املاك دير قزحيا في قرية بان من توت وغيرهِ وأُعطي لمدرسة بان خاصة الرهبانيَّة . ومع هذا كلهِ لا يقلّ عدد سكَّان هذا الدير عن الستين او السبعين راهباً. وقاه الله من صروف الدهر وظروفهِ وأبقاهُ فخرًا وملاذًا للرهبانيَّة وللطائفة بدعا. صاحب مقامهِ آمين .

تنبيه

ان الاب الكفري يتكلم في هذه النبذة التاريخيَّة عن بنـاء دير قزحيا القديم بعد ان تسلَّمتهُ الرهبانيَّة ، ولكنهُ يتبسَّط في الكلام عنهُ في نبذةٍ أخرى لهُ ، سوف ننشرها ، قبل ان ابتـاعتهُ الرهبانيَّة من المطران جرجس حبقوق ، وان البناء القديم الذي يتحدَّث عنهُ الاب الكفري فينبذتهِ التاريخية هذه، قد هُدم باذن قدس الآباتي المفضال اغناطيوس داغر التنُّوري رئيس الرهبانيَّة اللبنانيَّة العام سابقاً وجُدد بناؤهُ على اسلوبٍ حديث جديد متين بحسب الهندسة التي وضعها لهُ الشيخ جميل الخـازن ، في خلال رئاسة حضرة الاب ميخائيل نعمه السرعلي على هذا الدير . ولم يبقَ من البناء القديم سوى الكنيسة وبناء المطبعة وقسم من ممشى شكري (انظر رسم البناء القديم) . ولمَّا تمَّ بناؤهُ الجديد كلَّفتُ المرحوم الشاعر الناثر الحوري الياس الحائك (بكَّة ، بلاد جبيل) مدير المدروس العربيَّة وقتئذٍ في مدرسة عينطورا الشهيرة ، ان ينظم لهُ تاريخاً، فنظم ستَّة ابيات من الشعر لا اذكر منها سوى اربعة وهي :

تجدَّد ديرٌ كلُّ مـا فيهِ ناطقٌ بأوصافهِ الحسنى وتسبحة العلي
وحلَّت عليـهِ للرئاسة نعمةٌ بأيَّام ميخائيلَ من أرض سرعلِ
فكم زائرٍ ايمانهُ الحيُّ قادهُ الى دير قزحيَّا بقلبٍ مؤمَّلِ
فنال الذي يرجو وقـال مؤرِّخاً هنا معجزات الله للخلق تنجلي

١٩٢٦